جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة : الأولى

المادة : الأدب العربي قبل الإسلام

عنوان المحاضرة : الخصائص الفنية للقصيدة الجاهلية

مدرس المادة : أ.م.د. بشّار سَعْدي إسْمَاعِيل

الخصائص الفنية للقصيدة الجاهلية

البناء الفني

في الشعر الجاهلي ضربان من القصائد ، الضرب الأول قصائد طويلة كاملة تعالج - في غالبها - أكثر من موضوع واحد ، أي أن فيها مجموعة تجارب مجزأة إلى مراحل وموضوعات ... وهذا الضرب من الشعر هو الذي اعتنت به الدراسات قديما وحديثا ، ويتمثل في القصائد الطويلة المشهورة وأهمها المعلقات .

أما الضرب الثاني من الشعر الجاهلي فهو القصائد القصار والمقطعات وفيها نجد التجارب الشعرية الكاملة والصور الصادقة للحياة الجاهلية ، وأصداء أمينة لخفقات قلب الشاعر وترجمانا لعواطفه وأحاسيسه ، ذلك لأنها قصائد أصيلة لم تصدر عن صناعة أو تكلف ، وتتمثل في هذه القصائد وحدة الموضوع والتجربة الشعورية الصادقة على ما فيها من سرعة وإيجاز .

وعلى هذا فالحديث عن بناء القصيدة الجاهلية ومراحل تكوينها لا ينصرف إلا إلى القصائد الطوال ، هذه القصائد التي تتعدد فيها الموضوعات وتسير على نظام معين ونسق موروث سنّه القدماء منذ عهد متقدم في الجاهلية ، وتبعه المتأخرون في صدر الإسلام وسار على نهجهم كثير من شعراء العصر الأموي والعباسي على تفاوت في مقدار التبعية والالتزام .

ولم تكُ موضوعات القصيدة أو أجزاؤها مرتجلة على غير نظام ، بل يمهد الشاعر للموضوع الذي يختاره ، فيجعل له مقدمة طللية ، ينتقل بعدها وبعلاقة من تداعي الخواطر إلى ذكر أهل هذه الأطلال ، وتذكر أيام الصبا والهوى ، ثم يفخر أمام حبيبته ببطولته وكثرة وقائعه وشدة بلائه ، ويتداخل فخره بنفسه بفخره بقبيلته لأنه واحد منها ومجده من أمجادها ومن مفاخر نفسه تجشمه الأهوال وسعيه في سبيل المجد ، وكثرة ترحاله وطول أسفاره وفي هذه الأسفار يصحب الحيوان وبخاصة الناقة ، فحديثه عن الناقة جزء من رحلته ، وفي الرحلة مشاهد كثيرة من طبيعة قاسية في ليل مظلم وصحراء لافحة ومطر هطال ، وفي هذه اللوحة من الطبيعة مسارح للحيوان ومعارك لها مع الصائدين ، فينصرف الذهن إلى قصة هذه الحيوانات وما تتعرض له من مخاطر وبخاصة مخاطر الصياد وكلابه ، فهناك صراع بين الطبيعة وسكانها من إنسان وحيوان ووصف هذا الصراع وتلك المعارك هو وصف للبطولة وتعبير عن ذات الشاعر ممثلا

في إنتصار الثور أو فوز الحمار بأتانه وانفراده بها بعيدا عن أعين الرقباء وتربص الصيادين ، وقد تكون هذه أو تلك أماني الشاعر في أن ينتصر أو يخلو بحبيبته ، يعيرها هذا الحيوان أو ذاك ، وبعد أن يشبع الشاعر حاسته الفنية من رسم هذه اللوحات المتحركة ، والقصص الممتع يعود إلى ذاته ويستيقظ من أحلامه فيجدد القول في عرض آخر يريده أو يتعرض له من حيث لا يقصد ولا يتعمد ، وغالبا ما يلخص بعد ذلك تجاربه في حكم شاردة وتأمل في هذه الدنيا وغاية الانسان فيها ، ومصيره وخبر من باد من الناس أو هلك من الغابرين .

هذا هو نظام القصيدة في عمومه ، ولكل جزء من أجزاء القصيدة نظام خاص وعُرْفٌ _ عند الشعراء _ متبع :

المطلع :

لقد انصرفت عناية الشعراء منذ القديم إلى الاهتمام بمطالع قصائدهم ، لأنها أول ما تفاجئ السامع فلابد أن يكون لها وقع حسن ، ولذلك فقد حمد النقاد للشعراء مطالعهم الحسنة التي تكون واضحة سهلة المأخذ مع القوة والجزالة .

كذلك لاحظوا مناسبة المطلع لموضوع القصيدة ، فإذا كان المقام مقام حزن كان الأولى بالمطلع أن ينبئ بذلك من أول بيت ، وإذا كان المقام مقام تهنئة أو مديح كرهوا الابتداء بما يتشاءم به .

وفي القصائد الطويلة نجدها تبدأ بالديار والوقوف على الأطلال وبكائها والتأمل فيها كقول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقول طرفة بن العبد :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

ولكن هذا لا يعني أن كل الشعر الجاهلي كان يفتتح بذكر الديار فهناك قصائد طوال افتتحت بغير الحديث عن الديار وبكائها من ذلك مطولة عمرو بن كلثوم :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وغيرها . هذا هو الأسلوب العام في ابتداء المطولات ، البدء بالديار وحديثها وذكرياتها ، ولكن هذا لا يعني أن كل الشعر الجاهلي كان يفتتح بذكر الديار فكما شذّت معلقة عمرو بن كلثوم ، فقد نشزت قصائد كثيرة عن هذا الأسلوب ، فمن الشعراء من استبدل الديار بالغزل والحديث عن النفس كما فعل زهير بن أبي سُلمى:

صَحَا القلبُ عن سَلمى وأقصرَ باطلُهْ وعُرّيَ أفراسُ الصّبَا ورَواحِلُهْ

وأقصَرَ عمّا تَعْلَمينَ وسُدّدتْ عليّ سِوَى قَصْدِ السّبيلِ مَعَادِلُهْ

ثم يمضي في وصف الطبيعة والصيد حتى يصل إلى قصده من المديح وعلى هذه الشاكلة من الخروج على قاعدة البدء بالديار ، شعر الصعاليك في أكثره فهو يستعيض عن الديار بمحاورة النساء ، اللواتي يشفقن عليهم من خوض المغامرات كقول عروة بن الورد يخاطب امرأته سلمى ابنة منذر بأن تدعه وشأنه في حياة الصعلكة جريئاً غازياً يبيع نفسه لموت شريف :

أقلّي عليّ اللومَ يا ابنة منذرٍ ونامي فإن لم تشتهي النومَ فاسهري

ذريني ونفسي أمّ حسّان إنني بها قبلَ أن لا أملك البيعَ مشتري

أحاديثُ تبقى والفتى غيرُ خالدٍ إذا هو أمسى هامة تحت صيّرِ

إن هذه المقدمات الطللية أو الغزلية تمثل جزءا من حياة الجاهلي ، وهو حين يقف عندها يستحضر ذكرياته ويعود لأيامه وصباه ، فتثير في نفسه ألوانا من الأسى والشجو والحنين ، فيندفع في مناجاة هذه الديار ومخاطبتها ووصف آثارها ، فهو في الحقيقة يعبر عن احساسات صادقة وعواطف صحيحة تملأ شعاب نفسه ، فالديار بالنسبة للجاهلي تمثل الوطن المهجور والأهل والصحب والأحبة ، فهي ليست تقليدا بل هي حياة عاشها وذكريات عزيزة عليه ، فشعره فيها صادق العاطفة ينبع من فيض دافق من المشاعر والأشواق تكاد تمتزج امتزاجا بهذه الديار .

أما المطالع الغزلية ففيها إحساس دقيق بالجمال وتذوق لمحاسن المرأة والقارئ لمشاهد الارتحال والفراق ، يشعر بهزة من شوق ورهبة وحنين لهذا الفراق .

التخلص :

وإذا انتهينا من مقدمات القصائد ، نسير مع الشاعر خطوة أخرى لنراه كيف يغادر الموضوع الذي ابتدأ به إلى موضوع آخر ، أينتقل فجأة دون تمهيد أو يمهد لذلك بأبيات ، وهل هناك علاقة بين الديار والغزل وما بعدهما من ذكر الناقة أو الوصف أو الفخر؟ .

إنّ الشاعر المجيد هو الذي يحسن الانتقال ، فيغادر موضوعه الأول إلى الذي يليه دون خلل أو انقطاع ، ويجعل معانيه تنساب إلى الموضوع الآخر انسيابا لا يشعر قارؤه بالنقلة ، بل يجد نفسه في موضوع جديد هو استمرار للأول وامتداد له ، وبين الموضوعين تمازج والتئام وانسجام ، كقول زهير بن أبي سُلمى في بعض انتقالاته إلى المديح :

إنّ البخيلَ ملومٌ حيث كان ولـــ ـكن الجوادَ على عِلّاته هَرِمُ

وقد يتخذ الانتقال شكل التساؤل ، وبخاصة في سياق رحيل الأحبة كقول عنترة :

هل تبْلِغَني دارَها شدَنيّةٌ لُعِنَتْ بمحروم الشراب مصَرّمِ

وهناك أساليب كثيرة في التخلص والانتقال ، وقد يستخدم الشاعر لذلك الاستفهام أو الإشارة أو بعض الحروف كالفاء والواو ، ورب وبل ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة العامري :

تلك ابنة السعدي اضحتْ تشتكي لتخونَ عهدي والمخانةُ ذَامُ

وقد يتخذ الجاهليون الانتقال المفاجئ بالقطع ، وذلك بأن يقول : دع ذا أو فدعها أو عد عن ذا كقول الأعشى :

فدْعها وسَلّ الهمّ عنك بجسرةٍ تَزيّدُ في فضل الزّمامِ وتَعْتَلي

الخاتمة :

لقد لاحظ النقاد أن لخاتمة القصيدة أثرا في النفس ووقعا مهما ، لأنها آخر معنى يبقى في الأذهان ، وفي الشعر الجاهلي نهايات جميلة أعجبت النقاد قديما من ذلك قول تأبط شرا :

لتقرعن عليّ السِنّ من ندَمٍ إذا تذكرتَ يوماً بعضَ أخلاقي

وكثيرا ما يختتم الجاهليون قصائدهم بالحكمة ، وهي خلاصة تجاربهم وننظرتهم إلى الحياة كقول طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وغير ذلك .